النقد الإسلامي وقضية المنهج

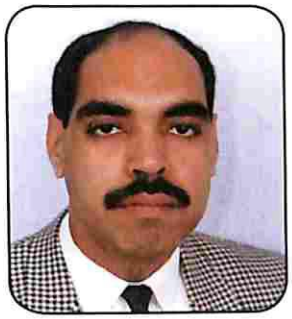

د . إسماعيل علوي - المغرب

إن من أهم القضايا الشائكة التي تعترض الباحث في مجال النقد الأدبي هو المنهج لأنه يعمل على ضبط مسير البحث ويقي صاحبه من الانحراف والأخطاء ويوجهه نحو بلوغ هدفه بفضل اسس علمية وقواعد واضحة. وهذا أهم ما أشار إليه المهتمون بالمنهج سواء ما تعلق منه بالعلوم الدقيقة أم بالعلوم الإنسانية.

ونريد في هذا البحث أن نتناول النقد الأدبي الإسلامي من خلال قضية المنهج. وقد كان دافعنا على خوض غمار هذا البحث هو ما نستشعره من حاجة ماسة إلى تعميق النقاش في هذه النقطة. وكذلك ما نلمسه من نقص في هذا المضمار. وقد أشار سيد قطب إلى ذلك فقال في هذا السياق:

وأول نقص ملحوظ أنه ليست هناك أصول مفهومة - بدرجة كافية - للنقد الأدبي. وليست هناك مناهج كذلك تتبعها هذه الأصول)[1].

لقد ناقش عدد من نقاد الأدب هذه القضية وتوصلوا إلى مجموعة من الأفكار تختلف باختلاف قناعاتهم وتصوراتهم. ولا نريد أن نعرض لآراء هؤلاء النقاد وإنما نريد أن نطرح القضية من زاوية إثارة مجموعة من الأسئلة ومحاولة مناقشتها لملامسة حجمها في النقد الإسلامي وما تطرحه من إشكالات. ولا بد في البداية من الإشارة إلى أن هنالك ثلة من النقاد والمهتمين أثاروا قضية المنهج سواء من حيث بعده العام أم الخاص. ولا شك في أن حديثنا عن

المناهج النقدية يفضي بنا إلى تناول علاقتنا بالغرب من حيث ما يتوافر من مناهج ومن حيث الأثر الذي يتركه في نقادنا. ونرى في البداية أن نسجل بعض الأفكار التي تعيد لنا الطريق للخروج ببعض الاستنتاجات.

◁◁ المناهج النقدية الغربية الحديثة بين وهم الشمولية والواقع النسبي.

إننا كثيرا ما نسمع أن المناهج النقدية عند الغربيين تستطيع أن تلم بالموضوع من كل جوانبه وتقيه من الزلل والانحراف وتعطيه بعدا شموليا يؤسس على عناصر علمية، وإذا نحن نظرنا في هذه المناهج نجد أنها تتسم بالمحدودية والنسبية بل تتسم أحيانا بالتعسف والشطط. وهذا ما تشهد به الساحة النقدية عند الغرب أنفسهم حيث القصور والمحدودية بل الخلط أحيانا.

وقد جاء في هذا السياق أنه (كان وراء القوة الدافعة نحو التنظير الشكلاني الرغبة في وضع حد للخلط المنهاجي السائد في الدراسات الأدبية التقليدية)[٢]. وفيما بعد نجد أن(روبيرت ياوس)- وهو من منظري نظرية المتلقي - ينتقد المنهج الشكلي كما ينتقد الماركسية ويعتبرها (ممارسة أخنى عليها الدهر)[٣]. وأكثر من هذا فقد جاءت نظرية التلقي بوصفها (حلا ممكنا لأزمة المنهجية الأدبية)[٤]. عند الغرب.

ولسنا في حاجة إلى التذكير بمكامن النقص في المنهج التاريخي والنفسي والاجتماعي، فكلها تعرضت للانتقاد من لدن النقاد الغربيين، وذلك لأنها لا ترقى إلى امتلاك أدوات شاملة تحيط بالنص وتفك مغالقه، ناهيك عما يلحق النص من تعسف وتحجيم.

ومن هنا نسجل أن هذه المناهج يقوم بعضها على أنقاض بعض مما يزيل وهم الشمولية وقدرتها على البقاء طويلا أمام غنى النصوص الإبداعية وتشعباتها.

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا التعصب لهذا المنهج أو ذاك إذا كانت هذه المناهج تعيش ردحا من الزمن ثم تقوم مناهج أخرى لتشغل الناس وتملأ الساحة.

ولماذا يرتمي نقادنا في أحضان هذه المناهج ويتعصبون لها إذا كانت هي نفسها نسبية لا تمتلك الحقيقة. وهذا ما يدفعنا إلى القول: إن تعامل النقد الإسلامي مع هذه المناهج الغربية الحديثة في شتى تجلياته وما أثاره من نقاش لا يجب أن يكون إلا وجها من أوجه ما يمكن أن يستفاد منه بحسب ما يقتضيه السياق الذي تم فيه التعامل مع هذا المنهج أو ذاك. ومن هنا وجب - عند مناقشة قضية المنهج - أن لا يجعل المنهج الغربي هو المحور وما نريده من منهج إسلامي هو الهامش. بل إن المحور هو ما نطمح إلى أن يكون منهجا إسلاميا، ومن خلاله تحدد العلاقة مع هذه المناهج.

وإذا كنا وصلنا إلى أنه من الوهم أن ننظر إلى منهج ما بوصفه منهجا كاملا شاملا فإننا نجد أيضا أن المنهج الواحد عند الغربيين يتعامل معه بطرق مختلفة فهذه (البنيوية ليست منهجا مطبقا بطريقة واحدة فما يقوم به (ليفي شتراوس) يختلف عن (بارت) و (التوشير) و (فوكو) و (لاكان))[٥].

◁◁ المنهج والتصور النقدي:

إن العبرة ليست في المنهج من حيث إنه ينظر إلى النص من الداخل أو من الخارج أو إنه يجمع بينهما في حدود إمكاناته، وإنما العبرة بالتصور الذي يحمله الناقد إذ إن المداخل لقراءة النصوص تكون متعددة سواء في الجانب الفني أو في الجانب المعنوي.

وهنا يمكن للناقد أن يختار جانبا أو جزئية يكشف عنها في النص ولا ضير في ذلك إذا كان ذا تصور إسلامي يستطيع أن يبقى هو السائد والأصل في تحريك العملية النقدية لأننا نعلم أن المناهج الغربية ترتكز على فلسفات قائمة، الذات توجهها وتؤطرها. وقد أشار الناقد رولان بارت[٦] إلى أن النقد الفرنسي تطور داخل أربع فلسفات: الوجودية التي أعطت آثار سارتر وبودلير وفلوبير وغيرهم، الماركسية، و التحليل النفسي، والبنيوية. وليس للنقد الإسلامي مثل هذه الفلسفات ولكنه يرتكز على أسس أخرى ومنطلقات مختلفة.

والسؤال الذي يطرح هنا هو: ماذا يختار النقد الإسلامي لنفسه من هذه المناهج السائدة، وكيف يتعامل معها؟

إذا كانت المناهج النقدية الغربية مؤطرة بتصورات وفلسفات سابقة فإنه من غير المعقول أن يقوم منهج إسلامي من غير تصور مستقل واضح للنصوص الإبداعية ومن العجز أن يرى الخلاص في هذه المناهج.

فإذا كنا نتحدث عن منهج وجودي أو ماركسي أو غير ذلك من المناهج ونحن نلمس عناصر هذا المنهج أو ذاك ماثلة أمامنا فإنه من اللازم علينا عندما نريد أن نتحدث عن منهج إسلامي أن نرى مقوماته ومكوناته بارزة فاعلة في النصوص المدروسة. وأن نرى أيضا تواصله الإيجابي مع باقي المعارف الأخرى بما فيها المناهج النقدية.

فهل يمكن أن نستفيد من هذه المناهج على الرغم من نسبيتها واختلافها مع تصورنا ومنطلقاتنا وإلى أي حد يكون ذلك؟

إن بإمكان الناقد الإسلامي أن يستفيد من تلك المناهج شريطة أن يتخلى عن البعد الإيديولوجي فيه وأن توافق السياق الذي أردناه فيه. يقول د . عماد الدين خليل: إن المنهج النفسي - مثلا - قد يخدم الدارس الإسلامي للأدب، من دون أن يشكل هذا أي ارتطام أو تناقض مع مفرداته المتميزة إذا عرف كيف يوظف المقاطع والمفردات المنهجية المتساوية مع قناعاته وتصوراته)[٧]، ولكن هل يعد منهج النقد الإسلامي عبارة عن انتقاءات ومقتطفات من تلك المناهج واختيار لما يناسب فقط؟

إن التعامل مع هذه المناهج من حيث الاستفادة منها يأتي في الدرجة الثانية لأن الأساس هو أن النقد الإسلامي له ذات ووجود قبل أن يتحاور مع الآخرين، وهذا ما يغفل عندما تناقش قضية المنهج الإسلامي ويتم التركيز على النظر إلى هذه المناهج الغربية وكأنها الخلاص والبديل المنهجي لنقدنا. وقد أوقعنا في هذا الاضطراب تهافت بعض النقاد على استنساخ المناهج الغربية أو تبنيها بدون نقد وتقويم. ولو أننا انتبهنا إلى بناء منهجنا النقدي الإسلامي منذ ارتمائنا في أحضان المناهج الغربية لسهل علينا معرفة كيفية التعامل مع هذه المناهج المستوردة. ونتساءل الآن ما هي ذات هذا المنهج النقدي الإسلامي وما منطلقه وما حدود الإفادة من إنجاز غيرنا؟

إنه التصور الإسلامي لكل شيء ومن ضمنها معالجة النصوص من حيث المنطلقات العامة التي جاءت في القرآن والسنة واجتهاد المجتهدين المسلمين في التعامل مع النصوص الإبداعية والنقدية وغيرها. لكن المشكلة التي تعترضنا هي أن هذه المنطلقات عامة، إذ إنها تقوم على بناء التصور وإقامة العدل والقسط والحث على المسؤولية وعدم الكذب وقول الحق والتوجيه إلى الخير وتقويم الاعوجاج وغير ذلك مما يمكن أن نستنبطه من هذه الأصول الموجهة. لكن عندما نكون إزاء معالجة نص من النصوص فهل نحجم عن الاستفادة من الدرس اللساني أو المنهج الفني أو ما نراه فاعلا في سياق من السياقات؟

لا يمكن أن يكون هنالك إحجام أبدا لأن النقد الإسلامي يؤمن بالتحاور والأخذ بالأسباب، وعليه قد يكون المدخل إلى نص من النصوص انطلاقا من المؤلف أو النص أو التفاعل بينهما علما بأن الناقد على دراية بحدود ما يفرضه عليه تصوره. وهنا تكمن المشكلة الحقيقية وهي هل هناك كفاية علمية ومعرفية تمكن الناقد من معرفة حدود الصالح من الطالح، وهل هنالك قدرة على تمييز ما يمكن أن يشين عمله مما هو مدسوس في تلك المناهج من انحرافات ومقاصد لا تلائمنا؟

إن هذا يدفعنا إلى الإشارة إلى ضرورة توافر الناقد على ثقافة واسعة وواعية يستطيع بموجبها ومن خلال تصوره أن يتفطن إلى الجوانب الإيجابية والسلبية في تلك المناهج أو في غيرها مما هو متاح للناقد أن يتعامل معه ويفيد منه. وبذلك لا يخشى على الناقد داخل دائرة الإسلام لأنه محصن بتوجيهات الأصول، وكلما ركب

مدخلا أو أسلوبا، أو استفاد من منهج إلا ويخضع ذلك تلقائيا لرؤيته الإسلامية التي تسخر الوسائل لصالح ما يبني الإنسان في عقله وعاطفته وخياله. (وحينذاك لن يكون التعامل مع مناهج الغير مجازفة غير مأمونة العواقب)[٨]. وهذا كفيل بأن يبدد التخوف من الإقدام على الاستفادة من هذه المناهج انطلاقا مما يلائمنا. وليس من الضرورة أن نتعامل مع كل المناهج في مستوى واحد وعلى درجة واحدة.

وعلى هذا الأساس نعالج الشعر والرواية والمسرح من خلال منطلقاتنا العامة من حرية ورسالية ومسؤولية وحث على المعنى والمبنى مستفيدين مما سبقنا إليه نقادنا المسلمون السابقون أو المحدثون في حديثهم عن أصول النقد ومناهجه وقواعده. وكذا في مجال النقد التطبيقي. ومستأنسين كذلك بما يلائم عند غيرنا. فنحن (لا نريد أن نعلن رفضنا المطلق للمناهج المستوردة، ونغلق المنافذ دونها لأن الفكر عطاء إنساني متكامل، يتجاوز الحدود الضيقة ليصبح ملكا للبشرية جمعاء. ومن ثم يمكننا أن نستفيد من إيجابياته التي لا تتعارض ورؤيتنا الحضارية وتصورنا الإسلامي)[٩]. وقد يعترض بعضنا ويقول: إن عملية الإفادة هذه من مناهج متعددة يؤدي إلى ضرب من التلفيق والجمع بين ما لا يمكن أن نجمعه.

ونقول هنا إن التلفيق يكون في غياب الرؤية الإسلامية وشتان بين الإفادة الواعية وبين الجمع العشوائي بين مكونات المناهج. وعلى هذا أشار د . عماد الدين خليل إلى أن المنهج الإسلامي: (قد يكون بشكل أو بآخر منهجا شموليا يتضمن... النفسي والاجتماعي

عماد الدين خليل

والفني والعلمي إلى آخره)[١٠]. وضمن هذه الاستراتيجية يجد النقاد المسلمون انفسهم أمام حرية اختيار التعامل مع أي منهج وهي حرية مسؤولة مرتبطة بالأصول. وفي هذا يكون التنوع داخل تصور واحد. ولكن وجبت الإشارة هنا إلى أننا لا نقصد بهذا أننا نسعى إلى الترويج إلى ما يسمى بـ (المنهج المتكامل) لأنه لا يعد بديلا عن (منهج نقدي إسلامي)[١١]. وذلك لما لوحظ فيه من هنات وأولها أنه يحاول أن يجمع بين حسنات عدد من المناهج في الآن نفسه، وهذا أمر لا يخلو من مغامرة رغم ما لهذا المنهج من إيجابيات دعا إليها سيد قطب رحمه الله.

وهذا يبين أن المنهج النقدي الإسلامي لا يطمح إلى الجمع بل إلى الإفادة ولا يسعى إلى التقليد بل إلى التأصيل وتكوين الذات. وهو إذا قام على ما أشرنا إليه يكون قادرا على التعامل مع المناهج النقدية الحديثة الآن أو في المستقبل.

وقد يبدو مما سبق ذكره في هذا البحث أنه من قبيل الأفكار العامة التي لا تهدي إلى دقائق المنهج الإسلامي وخطواته الإجرائية. وهنا نحب أن نقول: إن المنهج في النقد الإسلامي ليس نصا جاهزا وخطابا نحفظه ونطبقه على النصوص كلها بل هو دينامية تتركز على الأصول المذكورة وتجد طريقها إلى إثبات الذات من خلال النصوص المعروضة للنقد.

ومن خلال ما نراه من معالجة للنصوص الأدبية شعرا وسردا ومسرحا من لدن نقادنا يمكن أن نجد أنفسنا مستقبلا أمام خطاب نقدي منهجي يكون ذاته من خلال التجارب المتنوعة التي يمارسها نقاد ينطلقون من رؤية إسلامية. وهذا لا يعني أن الرؤية الإسلامية غير مكتملة بل إن الاستفادة مما يروج من مناهج هو الذي يدفع إلى الاحتكاك المستمر الذي نحصل فيه من خلال كل خطوة نقدية

على شيء جديد. وقد يخطئ هذا الناقد أو ذاك في التقدير أو قد يغيب عنه شيء ولكن في النهاية ترد الأمور إلى نصابها ويكشف النقاب عن الزيغ.

ولا بد أن نشير إلى أن النقد الإسلامي على المستوى المنهجي لا ينظر إلى أي عنصر من عناصر الإبداع خارج المسؤولية والحضور الفاعل ومن هنا يكون المبدع والنص والمتلقي لهذا النص حاضرا في ذهن الناقد باعتبار أن الأهم في الأخير هو الثمار النافعة التي نجنيها.

إذا كان الناقد يؤمن أن ما يكتبه ويقدمه للناس من ضمن مسؤولياته وما يحاسب عنه فإن منهجه لا محالة سيعكس هذا التصور ويستجيب له وفي ظل هذه الكلية سيكون الناقد أقرب إلى العدل والصواب. ولن يكون هذا إلا من خلال نظرية في الأدب تكون شاملة يستمد منها المنهج روحه وفعاليته، وكل منهج لا بد له من نظرية في الأدب، ونظرية الأدب هذه تطرح أسئلة جوهرية... وأهم هذه الأسئلة هو ما الأدب؟ أي التساؤل عن طبيعة الأعمال الأدبية وعناصرها وأجناسها وقوانينها. والسؤال الثاني يرتبط بعلاقة الأدب بالمجتمع والحياة والمبدع والمتلقي)[12]. وفي تقديري أن مثل هذه الأسئلة والأفكار في هذا البحث تساعد على تلمس الخلل ومعرفة الطريق لكي يكون لنا منهجنا الذي نعتز به ونركن إليه.

ونشير في الأخير إلى أن عددا من النقاد كتبوا عن المنهج النقدي الخاص بكل جنس أدبي واقترحوا ما من شأنه أن يدفع البحث في هذا الشأن إلى الأمام ومن أولئك غازي مختار طليمات الذي تحدث عن سبع سمات لمنهج إسلامي في المسرح وقال في الأخير: (لقد أثبتت مناهج الغرب كلها عجزها عن إقامة التوازن بين طرفي المعادلة، إذ كان كل منهج منها يتعصب للروح على المادة، أو المادة على الروح، فيختل التوازن، ويشقى باختلاله الناس. واليوم ينصب المنهج الإسلامي ميزانه العادل متوازي الكفتين ليمحو الحيف ويزيل التطفيف والشطط فما مبلغ قدرتنا على تطبيقه والاضطلاع بتبعاته)[13].

كما أن هنالك محاولات أخرى جادة تحلل النصوص الإبداعية شعريا وسرديا مستفيدة من تقنيات المناهج الغربية. ولن تخطئ الطريق ما دامت ترتكز على نبراس أصولها وتعرف نفسها كما تعرف حجم غيرها.

وأشير في الأخير إلى أن هذا الذي أشرنا إليه ليس سوى توجيهات قد تفيد في وجود حل ناجع لبناء منهج قويم له أسسه ومنطلقاته الواضحة ويعرف جيدا كيف يتعامل مع المناهج الوافدة ■

الهوامش:

● ندوة الأدب الإسلامي.. الرؤية والتشكيل، الحلقة الثانية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، بتاريخ ٢٦ يونيو ٢٠٠٦ في إطار ملتقى الأدب الإسلامي الأردني في المغرب.

(١) سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق، ط٤، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٥.

(٢) فيكتور إيرليخ، الشكلانية الروسية، ترجمة الوالي محمد، المركز الثقافي العربي، ط١، ص١٤.

(٣) روبرت هولب، نظرية التلقي مقدمة نقدية، ترجمة عز الدين إسماعيل، النادي الأدبي بجدة، ط١، ١٩٩٤، ص ١٥٠.

(٤) نفسه، ص٥٦.

(٥) انظر: عالم الفكر، المجلد ٣٠، أبريل يونيو ٢٠٠٢، ص٤٢.

(٦) Roland Barthes . Essais critiques . Editions du Seuil . ١٩٦٤ . pages ٢٥٢-٢٥٣.

(٧) عماد الدين خليل، مجلة الأدب الإسلامي، المجلد ٤، العدد ١٥، محرم/صفر/ ربيع الأول ١٤١٨هـ الموافق لـ ١٩٩٧م، ص٤٣.

(٨) نفسه.

(٩) علي الغزيوي، مدخل إلى المنهج الإسلامي في النقد الأدبي التأسيس، مطبعة فضالة، المحمدية، كتاب دعوة الحق، العدد ٦، ١٤٢١/٢٠٠٠، ص١٧.

(١٠) عماد الدين خليل، مجلة الأدب الإسلامي، المجلد ٤، العدد ١٥، محرم/صفر/ ربيع الأول ١٤١٨هـ الموافق لـ ١٩٩٧م، ص٤٣.

(١١) كمال أحمد المقابلة، أراء رابطة الأدب الإسلامي العالمية في الأدب والنقد.. دراسة وتقويم، دار الضياء، عمان، الأردن، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص٢٧٤.

(١٢) صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، دار الآفاق العربية، ط١، ١٩٩٧، ص١٠.

(١٣) مجلة الأدب الإسلامي، العدد ٢٠، ١٤١٩هـ، ص١٤.